آداب الرافدين – العدد (53)

1430هـ/2009م

اللون في شعر عبيد الله بن قيس الرُّقيات

م.م. حمد محمد فتحي الجبوري*

تاريخ التقديم: 2008/6/25 تاريخ القبول: 2008/8/26

مفهوم اللون في اللغة والاصطلاح

تأخذ كلمة (اللون) في المعاجم العربية معاني لغوية مختلفة منها ماقاله ابن فارس (ت 395هـ): "اللام، والواو، والنون كلمة واحدة" (1)، وفي معنى آخر عرّف الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175هـ) قائلاً: "اللون معروف، وجمعه ألوان، والفعل: التلوين، والتلون" (2). ويمتد اللون إلى معنى مختلف إذ يعرفه ابن دريد (ت321هـ) قائلاً: "لون كل شيء ما فصل بينه وبين غيره" (3)، ويقول الجوهري (ت393هـ): اللون هيئة كالسواد، والحمرة (4)، لكن ابن سيدة عرف اللون بأنه "السحنة والهيئة"(5)، كما ورد لفظ اللون في قوله تعالى ((وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ))(6)، ومما يستدل به على السحنة قول امريء القيس(7):

والعينُ قادحةٌ واليدُّ سابحةٌ والرَّجل طامحةٌ واللونُ غربيبُ

---

* قسم اللغة العربية/ كلية الآداب/ جامعة الموصل.

(1) مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: 223/5.

(2) كتاب العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي: 332/8.

(3) جمهرة اللغة، لأبن دريد أبي بكر محمد بن الحسين الأزدي البصري: 176/3.

(4) تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري: 297/6.

(5) المخصص، لأبن سيدة مادة (لون): 104/2.

(6) سورة النحل، الآية:13.

(7) ديوان امريء القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم: 226.

ويذهب الزمخشري (ت 538هـ) إلى أن اللون في المجاز هو الصنف أو الضرب وعنده لون من الثياب – صنف منه واشتريت من اللون وهو كل نوع من التمر سوى البرني"(1)، ويقال كثرت الألوان في أرض بني فلان(2).

نفهم مما تقدم أن معنى اللون عند علماء اللغة المتقدمين هو ما فصل بين الشيء وغيره أو ما دل على هيئة أو سحنة أو التغيير والتبدل أو جنس من التمر.

وأما المعنى الاصطلاحي للون فيعرفه التهانوي بأنه "كيفية يتوقف إبصارها على إبصار شيء آخر هو الضوء" (3)، أما الدراسات الحديثة فلها أكثر من تعريف اصطلاحي للون على وفق اهتمام من ينظر إليه فيعرفه بمفردات علمه وتخصصه فاللون "هو الانطباع الذي يولده النور على العين أي النور الذي يتم نشره وتوزيعه بواسطة"(4).

ونلاحظ اللون عند الفنانين والتشكيليين والمشتغلين بالصباغة هو "عبارة عن المواد الصباغية التي يستعملونها لانتاج التلوين"(5).

واللون عند من يعنون بعلم النفس "هو خبرة سايكلوجية قائمة على أساس فسلجي"(6)، كما أن اللون وسيلة هامة من وسائل التعبير والفهم، وقد دلت الأبحاث الأبحاث على أنه لا يزال كنزاً مخبوءاً لم يتمكن الإنسان من الوصول إلى قراره، انه قوة موجبة جذابة تؤثر في جهازنا العصبي، وأثره لا يقل عن أثر الموسيقى والغناء في النفس وربما فاقهمافي بعض الأحيان(7).

وبهذا يأخذ مفهوم اللون من ناحية الاصطلاح ابعاداً متنوعة ومتباينة حسب طبيعة الاستخدام وعلاقته بالشكل، "فمن المستحيل أن ندرك الشكل ادراكاً

---

(1) أساس البلاغة، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري: 576.

(2) المصدر نفسه: 576.

(3) كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي: 1309/5.

(4) الضوء واللون، فارس مثري ظاهر: 5.

(5) نظرية اللون، يحيى حمودة: 7.

(6) المصدر نفسه: 6.

(7) ينظر جدل اللون في شعر خليل حاوي، بشرى البستاني، مجلة آداب الرافدين، كلية الآداب، جامعة الموصل، ع1993/25: 165.

تاماً إلا بحضور اللون، وذلك لأن اللون هو انعكاس لأشعة الضوء على شكل الشيء الذي ندركه، ويعد اللون الجانب الظاهري للشكل"(1).

إن اللون "شعر صامت نظمته بلاغة الطبيعة وبيانها، فهو كلامها ولغتها والمعبر عن نفسيتها"" (2)، وتأسيساً على ما تقدم يمكن تعريف اللون بأنه الصبغة اللونية الدالة على الهيئة من حيث التنوع والتبدل والتميز ما بين الأشياء سواء أكان أحمر أم أخضر أي يعطي دلالات وأبعادا متنوعة بحسب طبيعة الاستخدام وإثارة الإحساس عن طريقه.

الألوان المباشرة و الألوان غير المباشرة

فالمقصود بالألوان المباشرة هي: الأبيض، والأسود، والأحمر، والأصفر، والأخضر، والأزرق.

وقد حددت بتلك الألوان، وفق هذا الترتيب، بحسب ما ورد عن العرب من ذكر لأهميتها، إشارة أو تلميحاً.

ويتحدث في هذا ابن حزم الأندلسي في (رسالة الألوان) عن الأبيض، والأسود، والأحمر، والأخضر، والأصفر، والأزرق، مشيراً إلى أن الألوان الأخرى تتولد عن امتزاج الألوان سالفة الذكر(3).

أما الألوان غير المباشرة (الضمنية)

يذكر النقاد بأنها ألفاظ تشير إلى دلالة لونية متخصصة بعينها، كما أن وجودها ليس مرتبطاً بشرط وضوحها اللفظي – ذكر اسم اللون (4). بل يمكن أن توجد تلميحاً من خلال تركيب شعري يوميء إلى لون أو ألوان من دون ذكر ذلك

---

(1) دلالات اللون في الفن العربي الإسلامي، عياض عبد الرحمن الدوري: 19.

(2) اللون، محمد يوسف همام: 1.

(3) ينظر رسالة الألوان، لأبي حزم الأندلسي: 33.

(4) ينظر إيقاع اللون في القصيدة العربية الحديثة، د. علوي الهاشمي: 275.

اللون بإسمه، أو قد يرد لفظ تعتوره طائفة من الدلالات لكن الشاعر يعني الدلالة اللونية لذلك اللفظ.

وقد أشار أبو هلال العسكري إلى هذا الأمر عندما قام بتحليل العديد من الصور التشبيهية مبيناً أنه قد يراد اللون أو الشكل أو كتعليقه على قوله تعالى: ((كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ))(1)،فالمراد حسب قوله تشبيه الشيء بالشيء لوناً وحسناً(2)، ولقد جمع الشاعر عبيد الله بن قيس الرقيات بين الألوان المباشرة وغير مباشرة من ذلك عندما أجاد في وصفه ونسيبه وتغزله بالمرأة إذ فصل رسم صورتها اللونية فأبدع في رسم مشاهد غاية في الجمال والروعة عندما جعل الألوان تتدخل أو يتشرب بعضها من بعض ليعطي صورة نهائية عن الجمال اللوني في صورة المحبوبة. فالشاعر هو خير من يدرك الجمال اللوني فيعبر عن انفعالاته النفسية والعاطفية من خلاله، إذ "أن الجمال لا ينبع من الأشياء وحدها ولا من النفس من غير مؤثرات مباشرة أو غير مباشرة وإنما هو في هاتين الناحيتين وفيما بينهما من تجارب"(3)، وأن إدراك الشاعر لهذا الجمال قد تجسد في رسمه صوراً مادية ومعنوية للمرأة بحيث تحولت رؤيته إلى عمل فني متكامل "وما الوجه والعين والخد والجيد والساق والخصر والأرداف والبنان سوى جماع الألوان والظلال والأضواء في أديم اللوحة الواحدة المتكاملة وما الثياب والحلي والعطور إلا إضافات تأتلف بها اللوحة ويزدان بها الإطار" (4)، فلعل المرأة تشغل حيزاً كبيراً من شعره فلوحاته غالباً هي أحفل اللوحات باستحضاره المفردة اللونية.

فيبدو أن من بين الألوان التي شغف بها الشاعر في موضوع اللون والوصف هو دلالة اللون الأبيض خاصة عندما يريد أن يرمز عن الرؤية الكلية للمرأة، وأول ما نلاحظه في هذا الشأن، أن الوعي الشعري العربي غالباً ما يخص الإنسان باللون الأبيض ومن ثم فأن البياض هو لون الإنسان العربي الجمالي.

---

(1) سورة الرحمن، الآية: 58.

(2) ينظر الصناعتين، لأبي هلال العسكري: 268.

(3) الأصول الفنية للأدب، عبد الحميد حسن، مكتبة الانجلو، مطبعة العلوم، ط 2، 1964م، ص18.

(4) صورة المرأة في شعر الغزل الأموي، د. رفيق خليل، بيروت، ط1، 1968، ص150.

ولأنه كذلك فأن الوعي الشعري عادة ما يربط بينه وبين معان وقيم محددة لها أهميتها في التشكيل الإنساني الجمالي بوصفه وجوداً ماهوياً. وهذا الربط سيؤدي إلى أن يكتسب البياض دلالات معينة ليست له أصلاً، بحكم العلاقة التشكيلية التي تنشأ بين العناصر والصفات وتسرب دلالات بعضها في بعض، فنرى الشاعر يستعمل هذا اللون في تشبيه وجه المرأة بالديباج والعتق، فيقول(1)

قُريشيةً عَبقَ العَبيرُ بها   عَبقَ العَبير بعاجةِ الحُقِّ
شبَّ البياضُ أمامَ صُفرتها   في رقةِ الدَّيباجِ والعتقِ
فظلت كالمقمور خِلعتَـهَ   هذا الجنون وليس بالعِشقِ

ولابد أن نفهم أن الصفرة هنا لا تشوب نقاء البياض بل تعززه وتزيده وضوحاً، لاسيما أنه يرتبط بالشمس ارتباطاً كلياً، وعلى الرغم من أن التفسيرات التقليدية تربط صفرة المرأة وما عليها من العطور والطيب إلا أنه الأعمق والأول، أن نفسرها بالشمس، ففي قول الشاعر تأكيد واضح لذلك، إلى جانب اقتران الصفرة في هذه التشكيلات بالرقة والجمال. وكله مما يعزز دلالات البياض أصلاً ويشتق منها.

أن وعي الشاعر يؤسس بياض المرأة (أمام صفرتها) رقةً في الحسن أي "شب البياض: حسن وعلا كشبوب النار وهو اتقادها، والثياب والحلي يشب لونها أي يحسنه ويقال شبت الثياب لوني" (2)، وهذا ما قاله الدكتور علي البطل أن للصفرة دلالات رمزية أن البيضة بما تجمعه في..... من بياض ومح أصفر إنما هي إجماع لسر الشمس في ضحوتها وعشيتها وغلافها الرقيق الهش يماثل رقة بشرة المرأة وملاسة أديمها وصفائه ونضرته وخلوه من أثر الزمن وتجاعيد السن، وهي محاطة بالرعاية والعناية"(3)، فاللون هو الذي منح الصورة هذا البعد الدلالي

---

(1) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، تحقيق بشرح محمد يوسف نجم: 32.

(2) ديوان عبيدالله بن قيس الرقيات: 32.

(3) الصورة في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري: 80.

والصوري(1)، هذا جانب من تشكيل دلالة اللون الأبيض، والجانب الآخر يتمثل في كون هذا اللون وثيق الصلة في الوعي الشعري بالمرأة من حيث هي إنسان جمالي، فلنحاول الكشف عن أبعاد البياض فيها ويمكن ملاحظة ذلك في قول الشاعر عندما وصف امرأة طافت ليلة بالبيت ثم اهدت لتستلم الركن الأسود وقبلته، وقد طافت مع عبيد بن قيس الرقيات، فتصادفا في تلك الأثناء، فاهوى ابن قيس يستلم الركن الأسود ويقبله فصادفها قد سبقت إليه، فنفحته بردفها فارتدع، فسأل عنها فقيل له هذه رقية بنت عبد الواحد بن أبي سعيد(2)، فعند ذلك قال(3):

من عذيري محّنِ يَضَنُّ بمبذو لٍ لغيري عليَّ الطَّواف
أحور العين فائَقَ الحسن حُلو القول مُرّ الفَعَال ذي إخلافِ

فاللون المحقق في (أحور العين) يحمل داخل النسق الشعري للنص دلالة جمالية أي أن اللون عنصر جمالي يبرز فيه مظاهر الجمال اللوني عند الحور العين، في شدة البياض، وشدة سواد السواد، وبذلك يتسم حسن العين (4)، فتخصيص الشاعر بـ (حور العين) يعطي جمالية غاية في الروعة، وهي "جمع حوراء التي يشيد بياض العيون، وسواد سوادها، وتستدير حدقها، وترق جفونها" (5)، وهي صفة تدل على جمال العين، وملاحتها، وحسنها، وصفائها، لذا يتجسد التضاد اللوني بين الفاتح على أشد ما يكون،و الادكن على أقوى ما يكون، فكانت (الوحدة) و (التوازن) حاصلين في قول الشاعر في وصفه للمرأة بتلك الصفة، فالشاعر عرض لنا في هذا البيت لفظة (أحور العين) تعكس للمتأمل في اجتماع لونين متناقضين كل التناقض ليؤلفا ترابطاً جميلاً على الرغم من تضادها، فهما متمازجان تمازجاً يظهر فيهما الحسن والروعة، على أكمل وجه، ولاسيما الأشياء تزداد حسناً بالتضاد(6)، ففي هذه الصورة يتحقق الانسجام من التضاد بين الأسود

---

(4) ينظر: عالم اللون في شعر نزار قباني (45): 29.

(1) ينظر، ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: 36.

(2) المصدر نفسه: 36.

(3) ينظر جامع البيان، الطبري: 111/5.

(4) لسان العرب: ابن منظور: 220/4 مادة (حور).

(5) ينظر أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني: 24.

والأبيض من خلال (أحور العين) فضلاً عن صيغة اسم التفضيل (أحور) مما ألهم الشاعر صورة عبرت عن رؤيته لدلالات اللونين في سكون العين وفتورها. ونلاحظ أيضاً قوله(1):

ظعنت لتحزُننا كثيرة ولقد تكونُ لنا أمـيره
أيام تِلك كأنـها حوراءُ من بقر غريره
شبت أمامَ لداتها بيضاءُ سابغةٌ الغديره
رَيّا الروادف غادةٌ بين الطوَّيلةِ والقصيره

ولعل ما يعزز هذه العلاقة الضدية بين اللون المباشر واللون غير المباشر وتداخلهما أن الحور من الأضداد يعني البياض والسواد في آن معاً، ومن ثم فأن المرأة التي شبهها وكأنها عيون البقرة من شدة توسعها وحدتها فضلاً عن الوجه الآخر (بيضاء) يشتق من اقترانها بالسابغة الغديره لذا فأن النص يعطي جمالية اللون التي لها دلالة قائمة على منح المرأة صفات جمالية، إذ تتجلى فاعلية اللون هنا بصورة غير مباشرة (حوراء) لصفة المرأة وبصورة مباشرة لصفتها على الوجه الظاهري، فهي بيضاء فيها النقاء والوضوح والإشراق لأن الأبيض لون للطهارة والنقاء والوضوح والسلام والأمل (2)، فالملاحظ على ذلك أن الشاعر قد وفق في استخدام عبارة (حوراء) و (بيضاء) لإبرازه دلالة التضاد اللوني إذ هي انجح العبارات في تصوير محاسن المرأة وإظهار مدى جماليتها عن طريق دلالة اللون الموجه بشكل متناسق. فتلك الدلالتان اللونيتان شكلتا لوحة رائعة في سياق شعر الشاعر، عبر تمييز اللفظتين بأنهما ذاتا جرس موسيقي عذب، ورخيم، وهادئ متأت عبر أصوات (المد) الطويلة ولاسيما الألف من خلال مضاعفته وهذا ما يعرف بالمد المكتسب تأكيداً لمعنى البياض كما أراد بها تحقيق معنى المبالغة أو الشدة في اللون.

---

(1) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: 43.

(2) ينظر الرسم واللون، محي الدين طالو: 171.

كما أعطى الشاعر في موضع آخر دلالة اللون غير مباشر وهو في إعطاء صفة التشبيه بالشمس والبدر لتلك المرأة عندما وصفها بقوله(1):

إنما تيمت فؤادي أُختـان   مُلوَّىً عليـهمـا الأطواقُ
منـهما الشمس أشرقت يوم دجنٍ   فأضاءت بنـورها الآفـاقُ
وفتـاةٌ كالبـدر تنحـو إليها   حين تبدو العيـون والأعناق
يعجز المطرف السُّباعيُّ عنـها   والازار المُقوَّف الملفـاقُ
فازتا بالجمـال والحسن لمّا   أكمل الخلق منـهُما الخَـلاَّقُ

فالشاعر لم يذكر اللون صراحة بل يمكن الاهتداء إليه من خلال قوله (الشمس) و (أضاءت) و (البدر) فهذه كلها تدل على أن الوصف في سياق النص يؤدي دوراً بارزاً من خلال العناصر التي توحي بمعنى اللون. إذ اشتقت صفة الإضاءة والنور التي تميز بياض المرأة فكل انكشاف ضوء وهو الظاهر الذي به كل ظهور والذي يبدأ وينتهي بالمرأة بوصفها إنساناً جمالياً. وأن العلاقة ستتعمق أكثر عندما يقترن بياض المرأة بالشمس والبدر، فالوعي الشعري يمنح جمالها ما يحتاجه منه بالضبط من خلال هذا الاقتران وهو المعرفة والانكشاف لأن الأبيض لون الإشراق والوضوح(2)، فالمعروف أيضاً أن لفظة (البدر) تتسم بالبياض فضلاً عما ينمُ به من جمال المنظر الذي يوحي به، مما يجعل النص لوحة فنية رائعة في التشبيه بالبدر لأن "التشبيه مظهر من مظاهر الإبداع" (3)، فالتشبيه هو الذي منح الصورة اللونية جمالية تعطي دلالات الإضاءة والتألق والإشراق، كما أن اللون هنا حمل دلالة إيجابية في كل معانيها.

فضلاً عن استعمال كاف التشبيه، والقصد من ذلك، إنهما في غاية الحسن والجمال، وتتضح رؤية من هذه المعاينة الجمالية للون بالاسلوب المتميز الذي استعمله الشاعر، إذ منح اللون قيماً فنية رائعة وجمالية لا يمكن الحصول عليها إلا من خلال لغة الشعر.

---

(3) ديوانه: 42.

(1) ينظر اللون، محمد يوسف همام: 1.

(2) جواهر البلاغة، المعاني والبيان والبديع، أحمد الهاشمي: 276.

وينحو الشاعر منحاً آخر في وصف محاسن النساء من خلال التشبيهات التي ذكرها بقوله(1):

صفراءُ كالسيراءِ لَمْ … تشمط عذوبتها بحُوره
من نسوةٍ كالبيض في الـ … أُدحيِ بالرمث المطيره
لم يصطلين غضاً ولم … يضربن للبهم الحظيره

إذ يشبه الشاعر المرأة بالسيراء نوع من البرود ولصفرة الطيب لذا أتى التشبيه في الصورة اللونية فيبين إحساس الشاعر من خلال تشبيه الشيء بما يناظره من ناحية اللون والصورة فوصفه لتلك النساء بيض الذي هو أملس لا عيب فيهن في أرض لينة سهلة فضلاً عن أن هن ملكات حضريات وليس بدويات (2)، ولعل أهم لون أضافه الشاعر إلى اللون الأبيض أو مزجه معه في رؤيته إلى صورة المرأة اللون الأصفر، لأن الصفرة الناتجة من النعيم والرخاء هي التي عناها الشاعر ولم يقصد بهذا اللون إيحاءاته الدالة وهذا ما قاله الجاحظ أن "المرأة الرقيقة اللون يكون بياضها بالغداة يضرب إلى الحمرة، وبالعشي يضرب إلى الصفرة"(3).

والمقصود بالصفرة إنما هي التي تضرب في اللون من طول المكث في الكن والتضمخ بالطيب كما تضرب في بيضة الأدحي واللؤلؤة المكنونة" (4)، فتشبيهه بصفرة الطيب وبيض الادحي هو الذي أضاف جمالية لونية فالطيب أضاف إلى البياض لوناً آخر أصفر حسب مادته ولونه، فلحالة الاصفرار دلالات رمزية فضلاعن الصورة التشبيهية (صفراء كالسيراء، كالبيض في الادحي) هي التي منحت الصورة السابقة في النص الشعري بعدها الدلالي التشكيلي المطلوب،

---

(3) ديوانه: 44.

(1) ديوان عبيدالله بن قيس الرقيات: 44–45.

(2) البيان والتبيين (أبو عمرو) الجاحظ: 225/1.

(3) ينظر العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي: 115/6.

فالبياض المرتبط بالصفرة أولاً وبالبيض الأدحي ثانياً، جعل اللون ذا قيمة تقدم للمتلقي كل دلالات السرور والفرح والنضارة والسعادة والمرح(1).

ويرسم الشاعر صورة تشبيهية أخرى يصف فيها جمال حسن الخلق في طيف المنام في ساعة متأخرة من الليل مما ألم به ذلك فشبهها بالأقحوان فيقول(2):

طرق الخيالُ المعتري   وهنا وسادَ العاشقِ
طيفٌ ألمَّ فشاقني   للنحود أُمَّ مُسَاحَقِ
تفتر عن عذبٍ وذي   أُشر لقلبك شائقِ
كالأقحوان مَرآتُهُ   ومذاقه للذائقِ

فقد شبه الشاعر ابتسامة ثغرها التي كشرت عن أسنانها كما تنكل السحاب بالبرق فشبهه بالأقحوان والأقحوان "نبت طيب الريح داخله أصفر وخارجه أبيض"(3)، فما بين الأبيض والأصفر غاية في قمة الجمال ما يستدعي عنده صورة المرأة فالحدود قد تداخلت ما بين المشبه والمشبه به فهذا التداخل يؤكد تلاشي الحدود بين الرموز وتداخل أطرافها في معادلة التشبيه. إذ بين دلالة التوافق في الأبيض مع الرؤية الشاعرية إذ يرمز هنا إلى نقاء الحب ورقته وروعته وشفافيته أما (دلالة الأصفر) فيبلغ أعلى درجاته قوة في التعبير يصبح تعبيراً عن سلطة اللون وقوة تأثيره وعطائه أيضاً.

ومن الصور التي عبر بها عن المشهد اللوني أيضاً في وصفه عيون المرأة إذ يقول(4):

حبذا الدَّلالُ والغُنُجُ   والتي في طرفها دعجُ
التي إن حدثت كذبت   والتي في وصلها خُلُجُ
تلك إن جاءت بنائلها   فأبنُ قيسٍ قلبُهُ ثلجُ
وترى في البيت سُنّتها   مثل ما في البيعة السرجُ
حدثوني هل على رجلٍ   عاشقٍ في قبلةٍ حَرَجُ

---

(4) ينظر اللون، محمد يوسف همام: 7.

(1) ديوان عبيدالله بن قيس الرقيات: 59.

(2) المصدر نفسه: 59.

(3) المصدر نفسه: 163.

فالدعجُ سواد العين مع سعتها (1) فسواد عين المحبوبة إعلان عن فتنتها التي تشده إليها وتغريه به فهو يشير إلى سوادها وسعتها فضلاً عن تشبيهه بلمعان وجهها وإشراقها بنور السرج في البيعة فيبدو أن للعين تأثيرها الكبير في نفس الشاعر، لأنها النافذة التي يطل منها على محبوبته ففيها يكمن الجمال الحسي الذي يشاهده بعينه، والجمال الروحي الذي يستلهمه ويحس به من خلال رنو النظرة وما يصاحبها من تأثير في نفسه (2)، لهذا شكل تضاد اللونين الأسود أي سواد العين والأبيض ألا وهو نور السرج جمالاً ألهم الشاعر صوراً عبرت عن رؤيته لدلالات هذين اللونين في حركة العيون مع الإشراق وهما يفعلان فعلهما في نفس الشاعر التواقة لهما.

ويرسم من خلال تصريحه باللون الأبيض صورة تشبيهية أخرى يصور فيها وجه الحبيبة أيضاً إذ يقول(3):

حيَّوا حليلةَ بعلها سلاَمَةْ   وعلى الخليل من الخليل ذمامهْ
بيضاءُ كالورق اللُّجين يزينها   وجهٌ عليه نضرةٌ وقسامهْ
تِلكَ التي اصفيتها بنصيحتي   هل بعد إجهاد الخليل ملامهْ
وعدتك بالبيت المبارك أهلهُ   هيهات مسكنُ من تحلُّ تهامهْ

إن الدال اللوني يمثل المكانة البارزة من خلال لفظ (بيضاء) كلون مباشر تصريحي ولفظ (الورق) وهو لون ضمني، لذا فنص الشاعر أن يعطي جمالية اللون التي لها دلالة قائمة على منح المرأة صفات جمالية، إذ تتجلى فاعلية اللون هنا بصورة مباشرة للمرأة على الوجه الظاهري، فهي بيضاء فيها النقاء والوضوح، وإلى جانب هذا البعد الجمالي اللوني تكتسب المرأة بعداً جمالياً آخر ضمن إطار آخر، وذلك عندما يشبهها الشاعر بأنها (كالورق) أي الفضة (4)، إذ يلتقي اللون

---

(1) ينظر ديوان عبيدالله بن قيس الرقيات: 163.

(2) ينظر البنى الثابتة والمتغيرة لشعر الغزل في صدر الإسلام والعصر الأموي: 182.

(3) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: 165.

(4) ينظر ديوان عبيدالله بن قيس الرقيات: 165.

الأبيض مع الصفات الأخرى التي منحت المرأة جمالية لتشكل صورة متكاملة تقنع إحساس المتلقي وترضي رغبته في رسم الصورة المثالية لوجه المرأة التي وصفها الشاعر.

فيعد ذلك أن الشاعر في صوره وتشبيهاته "أخذ الجانب اللوني دون النفاذ إلى الأعمق"(1)، فأنه بلا شك أجاد في رسم صورة محبوبته إذ أن "استخدامه للون في صوره يخلق مناخاً تشيع فيه ديناميكية خاصة، وهو في استخدامه للألوان يظهر رساماً أكثر منه شاعراً فهو رائع في خلق ديكور فني متميز لصوره كما هو رائع في خلق لفظة شعرية ترسل في عالمه بريقاً وشعاعاً متدفقاً" (2)، ثم يرسم لنا الشاعر لوحة أخرى في وصفه لمحبوبته (رقية) عندما شغف حبه بها وتعلق تعلقاً عميقاً جعله إلى أن يكون علاجاً له فالطبيب له هو حبها لكن اللون الأصفر يؤدي دوراً أساسياً في التصوير اللوني لها فيقول(3)":

رقيةُ تيمت قلبـي فوا كبدي من الحبِ
وقالوا دواؤهُ طبٌّ ألا بل حُبُّهـا طبـي
نـهاني أخوتي عنـها وما للقلب من ذنـبِ
وعلى صفراء آنسةٍ كخوط البانة الرُّطبِ
وما أقبل نُصحَ النا صحي من شدة الكربِ

فالشاعر تغزل بالمحبوبة إذ بين أسباب الصفرة، فهي صفراء طبيعية، آنسة، لأن الصفرة سبب من أسباب الحسن والجمال (4)، لذا فأن تشبيه الشاعر هنا يعد عنصراً جمالياً فمجيء اللون الأصفر بالاستخدا م المباشر ناتج عن أنه رمز ودليل على السرور والسعادة والنظارة أضفى على سياق النص جمالية، إذ أن النص الملون بالأنس ينطوي على إيحاء جمالي متفرد فضلاً عن اكتساب البعد الايجابي تجاه ما اقره الشاعر لوصفه لمحبوبته للمسرة فالقصد من وصف تلك

---

(1) دراسات في الشعر السوري الحديث، وفيق خنسه: 180.

(2) عالم اللون في شعر نزار قباني، محمد صابر عبيد، مجلة الجامعة، الموصل، ع 5، 1980، ص23.

(3) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: 169.

(4) ينظر المستطرف من أخبار الجواري، السيوطي، د. صلاح الدين المنجد، 28.

المحبوبة بالصورة اللونية التأثير في المتلقي حتى يدعوه إلى إدراك اللون من خلال جماليته وتوقظ في النفس تداعيات تشكل كيفية إدراك اللون.

ونرى الشاعر يستخدم هذا اللون أيضاً في وصفه لأمرأتين كونهما تتميزان بالحسن والنضارة إذ يقول(1):

وقولا لعبد الله ويحك غننـا بتكتم أو بنتِ الحواريّ مريما
فتاتان بيضاوان بالحسن راقتا على ساكن الدنيا بناناً ومبسما
تقسَّمتا نصفي فنصفٌ بمكـةَ ونصفٌ لأهل الغور فيمن تُقُسّما

من خلال البيت الشعري المتضمن لفظ (بيضاوان) نجد أن هذا الوصف إشارات لأهمية وجمالية المشهد التصوري الذي يصوره الشاعر في لوحة اللون الأبيض، لذلك يركز نسق السياق على صورة الكثافة اللونية، أو ما ينم عنها من أن "الكثافة تفعل الحسن، لأن الألوان والأضواء والأشكال، والتخطيط، وجميع المعاني المستحسنة التي تظهر في صور المبصرات ليس يدركها إلا من أجل الكثافة الدلالية" (2)، إذ تروم هذه الكثافة اللونية البيضاء على تحقيق وتقريب المعاني إلى ذهن المتلقي، عن طريق التشبيه، فمن خلال بنية المفردة اللونية بهذه الصيغة التي وردت في سياق البيت الشعري (بيضاوان) تعمق كثافةاللون ودلالته وتركيزه إلى حد كبير، وحققت أجمل دلالة ممكنة من دلالات اللون الأبيض، ودالة في الوقت نفسه على درجة إحساس الرائي باللون وقوة تعبيرية عن الإعجاب به، فضلاً عن النور والضياء الذي يكون في وصفهما لدى الشاعر والمتلقي، فاستعمال مفردة اللون التي أراد بها تحقيق معنى المبالغة أو الشدة في اللون، مما يزيد المشهد اللوني بعداً جمالياً دلالياً يحمل طابعاً وصفياً، فكان مجيء مفردة اللون على تلك الصيغة الأطول ضمن سياق البيت الشعري تقتضي مد الصوت فيه امتداد النفس، لأنها تقدر ترغيباً في نفس الذات الشاعر لدى الفتاتين ومدى تأثيرهما فيه.

---

(1) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: 62.

(2) المناظر، الحسن بن الهيثم: 311.

أن الشاعر مدح بعض الخلفاء والأمراء والولاة الذين كانوا بمثابة أصحاب المروءة والكرم والشجاعة فكان لابد من المدح لهم، إذ انصرفت رؤيته اللونية إلى بيان كرم الممدوح وشجاعته لهذا كانت صورته اللونية معنوية استدعى فيها اللون المباشر الأبيض ودلالته(غير مباشرة) لأنه يدل على أصالة الأعراق والرفعة والتميز والكرم والشجاعة ويرمز إلى النقاء والإشراق والخير فضلاً عن أنه رمز الطهرة والغبطة والفرح والنصر والسلام(1).

واستحضر الشاعر هذا اللون في صور رمزية للأبيض تعبر عن مدحه لعبد العزيز بن مروان وأشار باللون إلى نقاء العرض إذ يقول(2):

ومن تفيض الندى يداه من ينتهبُ الحمد عند منتهيهْ
أُمُّك بيضاء من قضاعة في الـ بيتِ الذي يُستظل في طنبهْ
وأنت في الجوهر المهذب من عبد منافٍ يداك في سببهْ
يخلفك البيضُ من بنيك كما يخلفُ عود النضار في شعبهْ

فالشاعر يصف أمير البلاد بالملك الذي يُستظل في بيته لأنه طويل كبير وأمه بيضاء نقية من الدنس كما أولاده البيض أيضاً فلهم رمز للرفعة والسمو كشجر الأثل لا ينبت إلا طيب فالملاحظ أن الشاعر ذكر البياض لا يراد به بياض اللون فقط ولكن يراد به المدح بالكرم ونقاء العرض وإذا قيل فلان أبيض الوجه، أُريد بذلك نقاء اللون من الكلف والسواد الشائن (3)، إذ يسعى اللون في هذه الأبيات إلى تكريس دلالة البراءة والنقاء كإحدى الدلالات التي يحظى بها هذا اللون في الذاكرة الاجتماعية، فاللون هو الذي منح الصورة هذا البعد الدلالي الصوري. وينقل في مدح مصعب بن الزبير إذ يقول(4):

والذي نغص ابن دومة ماتو حي الشياطينُ السيوف ظماءُ
فاباح العراق يضربهم بالسيف صلتاً وفي الضراب غـلاءُ
غيبوا عن مواطنٍ مفظعـاتٍ ليس فيها إلا السيوف رخاءُ

---

(1) ينظر الرسم واللون، محي الدين طالو: 171.
(2) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: 14.
(3) ينظر رسائل الجاحظ: تحقيق عبد السلام محمد هارون: 207/1.
(4) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: 90.

فسعوا كي يغللوك ويابـي **الله إلا الذي يرى ويشـاءُ**
....
إنما مصعب شهابٌ من الله **تجلت عن وجهه الظلمـاءُ**
ملكـة ملك قوةٍ ليس فيـه **جبروتٌ ولا بـه كبريــاءُ**

ويبدو أن الشاعر كان على وعي بما تتركه الأوصاف اللونية غير المباشرة من أثر حسن في نفوس من كان يعنيهم بهذه المدائح، وهذا ما تفسره في لفظ (السيف، السيوف، شهاب، تجلت) فالشاعر يبدي كرم ممدوحة عندما ينعته بالسيف ويشبهه بالشهاب تجلت عن وجهه الظلماء وهو لون النور لأنه يضيء الظلماء أما السيف فارتبط بنصله فالبياض لا يفارق السيوف، لأنه فيه دلالة القطع والحدة والأبيض دلالة الصفاء لأن السيف مصقول فهو صافٍ، فيضع الشاعر التقابل الدلالي المتضاد للونين الأبيض (السيف، الشهاب) والأسود (الظلماء) دليلاً فنياً في التعبير عن القيم الأخلاقية والبطولية التي يتصف بها ممدوحه فاللون الأبيض (السيف/ ملتصق بجسد الفارس وهذا يدل على حماية الفرسان من أذى العدو) أما الشهاب يعني أي أنه شبه بهذا التشبيه دلالة على الإشراق والوضوح(1)، وهذا يدل على شجاعته في الوغى إذ يرفع عن القوم المخاطر وانطفاء الحرب وعناصرها. لتوثيق بين السيف وضوء الشهاب الذي ينهي ظلمة الليل يمحو سوادها وهذا يدل على أن الشاعر انتقل من وظيفة واقعية إلى وظيفة معنوية أعمق في نفس الشاعر وهي دلالة الشهاب لأنها تدل على إشراق المعاني وديمومتها تحول بالأسفل وختاماً ينبغي أن نشير إلى أن دراستنا هذه حاولت الولوج إلى صميم معنى اللون في شعر الشاعر الأموي إذ كشفت الدراسة على أن اللون كان أداة فاعلة في تجربة عبيد الله بن قيس الرقيات إذ ذكر صوراً لونية شعرية مستقلة أوجدها الشاعر وحدد أبعادها دون حاجة إلى قراءة باقي الأبعاد وفي بقية أجزاء الصورة.

---

(1) ينظر اللون: 7.

وبينت الدراسة أهمية اللون في الغرض الشعري وهو الجاني الموضوعي في الصورة اللونية فقد عبر الشاعر عن الصورة الإيجابية والسلبية لهذا الإنسان عن طريق رؤى ودلالات الألوان ففي الصورة الإيجابية عبر اللون الأبيض عن صورة المرأة المتغزل بها مضافاً إليه اللون الأصفر وقد وجد الشاعر لبقية الألوان مناطق بدت فيها جميلة في تقسيمات جسم المرأة ولهذا الجانب لوحاتها هي أحفل اللوحات باستحضار المفردة اللونية. وقد كشفت الدراسة أيضاً عن الثراء اللوني في لغة الشاعر وقد حاولت إثبات ذلك في عدة ألفاظ ضمنية تتضمن معنى الألوان التصريحية المباشرة والألوان الضمنية غير المباشرة، يستنتج من هذا أن اللون في شعره شكل صورة معنوية أكثر منها حسية ولهذا لم تكن هناك دلالة واحدة مستقرة للون واحد. وأن غلبة اللون الأبيض على بقية الألوان تبين أهميته لدى الشاعر في تغزله بالمحبوبة، وتعكس آثاره النفسية عليه وارتباطها في التعبير عن وصفه وتغزله في جمال المرأة البيضاء.

1430هـ/2009م

Colour in Obaidullah bin Qeis’s Poetry “Al-Ruqyyat”

Hamad Mohammed Fathi Al-Jubouri[*]

Abstract

Colour represent a mystery of the world and a riddle on which this phenomenon, with its day and night, earth and sky, is based. The importance of colour in the poetry of the Umaid poet is manifested according to a strategy which has derived its elements and pillars from the nature of the elevated poetic text, from what can be noticed by probing deep in the poets poems. The following study is regarded as the heart of the poetic theme whose effects start right from their effective presence in the colour text.

---

[*] Dept. of Arabic/ College of Arts/ University of Mosul.